



نعم، آن له أن يرثا؛ ليس من بلاء اثنين وثلاثين شهراً فحسب، وإنما من عناء مئة عام، وليس فقط من الحصار والتجويع والاعتقال والقتل والتمذير، وإنما من دهر طويل من الخوف والذل والاستعباد. آن للشعب السوري أن يعيش حراً كريماً بلا خوف ولا ذل ولا استعباد.

-1-

ُعزل السلطان عبد الحميد عام 1909 بانقلاب عسكري (يُشبه انقلاب السيسي الأخير في مصر) نَفَّذه بعض ضباط الجيش العثماني، وكانوا ينتمون إلى حركة عنصرية طورانية اسمها "الاتحاد والترقي" وكثير منهم من يهود الدولة كما صار معروفاً من بعد. بدأ الاتحاديون على الفور بسياسة تحرير عنصرية كان العرب في بلاد الشام وغيرها من ضحاياها، ثم قذفوا الدولة -بعد ذلك بخمس سنوات- في أتون حرب عالمية لم تكن لها بها علاقة وليس لها فيها ناقة ولا بعير.

كان ينبغي على الدولة العثمانية أن تقف على الحياد وتترك الممالك الأوروبية يطعن بعضها بعضاً، فإذا وضعت الحرب أوزارها خرج الأعداء المتنازعون منهاكين -من ظفر منهم ومن خسر-. وصارت الدولة ظاهرةً بما سلم لها من قوتها وطاقتها وفرضت نفسها على الضعفاء المنهكين. ذلك ما كان ينبغي أن يكون، ولكن الاتحاديين أساوا التدبير والتقدير فقذفوا الدولة في تلك الحرب المدمرة الهوجاء، فعاش الناس في بلاد الشام في ضنك وبؤس وعاشوا في خوف وهوان؛ حوصلت الحريات ولو حق الأحرار، وأكلت المعارك الرجال الذين سيقوا إلى الجبهات وحصدت المجاميع من بقي منهم في البلاد، لأن الاتحاديين أخذوا ما أنتجته الأرض من خيرات فمنحوها للألمان.

-2-

ثم انجلی غبار المعركة عن خسارة عظيمة لألمانيا وحلفائها، فسقطت الدولة العثمانية وتبعثرت ممتلكاتها بين الأعداء، فكانت سوريا من نصيب الفرنسيين الذين دخلوها مفترضين محتلين.

نزلوا بالسواحل أولاً، ثم تقدموا على البر حتى طرقوا دمشق، واستسلم فيصل وحلّ الجيش وولى هارباً خارج البلاد، ولكن وزير الحرية الشاب الشجاع الأبي، يوسف العظمة، أبي الهوان والاستسلام، فخرج في ثلاثة آلاف من الجنود والمتقطعين إلى ميسلون وليس في أيديهم إلا حفنة من البواريد القديمة، فالتقوا بتسعة آلاف من الجنود المحترفين ومعهم المدافع والدبابات

والطيارات، فاستُشهد يوسف ومئات من رفقاءه، وانكسر الجيش وانفتح طريق الغزاة إلى دمشق.

في اليوم التالي، الرابع والعشرين من تموز 1920، دخل الجيش الفرنسي دمشق محظياً غازياً، فلم يخرج منها إلا بعد خمسة عشر سنتاً وشهور. رباعٌ قرن عانى فيه السوريون من الاحتلال والإذلال، رباعٌ قرن من الاستعمار حُرِّقت فيه بلادنا بالنار وقتل خيالُ أهلها وشُرُّد الأحرار، رباعٌ قرن لم يكُن فيه السوريين عن الثورة والجهاد حتى تحرروا من الاحتلال وتخلصوا من الاستعمار.

-3-

ما كاد الاحتلال الفرنسي ينحصر عن سوريا، وما كاد السوريون يتقطعون أنفاسهم ويحتفلون بحربيتهم الضائعة ويستردّون كرامتهم المهدورة، ما كادوا يستنشقون نسمات الحرية ويحسّون بالأمان ويملكون أمرهم وإرادتهم الحرة وقرارهم المستقل وحقهم في اختيار حكام وحكومات البلاد، ما كاد ذلك كله يتحقق حتى ضربتهم قارعة الانقلابات. لم يطب لأعداء الأمة أن تبقى سوريا حرّة مستقلة كريمة، خرج الفرنسيون من الباب فدخل الأميركيون من الشباك.

أرسلت الولايات المتحدة عمالءها، كيرمت روزفلت ومايلز كوبلاند وستيفن ميد وبقية العصابة، فاتصلوا برئيس أركان الجيش حسني الزعيم، ودبّروا أول انقلاب عسكري في تاريخ سوريا الحديثة في الثلاثين من آذار عام 1949. الحكم العسكري والحرية ضدان لا يجتمعان، فما دخل أحدهما أرضًا إلا خرج الآخر منها.

جائت الانقلابات بالعسكر إلى حكم سوريا وبدأ الضغط على الحريات يتزايد انقلاباً بعد انقلاب.

لم يلبث الزعيم أن سقط بانقلاب الحناوي الذي قاده أديب الشيشكلي من خلف الستار، ثم أزاحه بانقلاب آخر وصار هو الحاكم المطلق لسوريا، فزاد الاستبداد وخنقُ الحريات وملحقة الأحرار.

ثم زاد مرة أخرى حتى بلغ ذروته في العهد الناصري الكئيب أيام الوحدة، فقد عرف السوريون فيه للمرة الأولى الهيمنة المطلقة للأجهزة الأمنية، حينما صار عبد الحميد السراج الذي كان رئيساً لجهاز المخابرات (وقد مات في القاهرة بصمت قبل شهرين فلم يحسّ به أحد) صار وزير الداخلية ورئيس المكتب التنفيذي للإقليم الشمالي (سوريا)، وبلغ عهده من السوء درجة ظن السوريون أنها لا مزيد عليها، حتى دخلوا في النفق المظلم بعد انقلاب البعث المشؤوم.

-4-

كل ما سبق استغرق نصفَ القرن الأول من المأساة، وما زالت عهودُ تأكل حريةَ السوريين وكرامتهم وأمنهم وحياتهم قطعة بعد قطعة، حتى جاء العهد البعثي الأسدية المجرم المظلوم فأكل البقية الباقيّة منها جميعاً، وحجب عن سوريا الشمس وحوّلها إلى سجن كبير.

نصف قرن عاش فيه عشرون مليون سوري في سجن كبير اسمه سوريا، وعاش فيه عشرات ألف في سجون أصغر ضمن السجن الكبير. لم يأمن أحد يوماً أن يبقى في السجن الكبير فلا تبتلعه بعضُ السجون الأصغر، لم يأمن أحد يوماً على نفسه. عاش الناس العدد العديد من السنين في خوف ليست له حدود، خوف من كل شيء وخوف من كل أحد، خوف من اليوم وخوف من الغد وخوف من المعلوم وخوف من المجهول.

ثار السوريون على المحتل الأول، فرنسا، فهزموا فرنسا وأخرجوها من سوريا، ولكن الاحتلال عاد بصورة أبشع وأقسى، حتى وصل السوريون إلى يوم قالوا فيه: ليتنا ما حاربنا فرنسا، يا ليت فرنسا تعود! ذلك لأنهم خُدّعوا يوماً ظنوا أن الاحتلال هو الذي يأتي من وراء الحدود فحسب، ثم علمتهم الأيامُ أن احتلالَ من يتحدث بلسانهم ويسكن في أرضهم أسوأ من احتلال البعيد الغريب، فذاك يعرف الجاهل والعاقل أنه عدو لئيم ومحتلٌ غريم، وهذا يلبس على المغفلين حتى يظنوه منهم فيسكتوا

عنه ويركعوا إليه. ذلك عدو غريب إذا طُرد انطرب وهذا عدو قريب ينزع فلا ينفلع.

-5-

آن للشعب السوري أن يرتاح فقد تعب كثيراً؛ تعب من الخوف، تعب من الذل، تعب من القيود والأغلال. آن للسوريين أن يستنشقوا نسميم الحرية، آن لهم أن يعيشوا بلا خوف، بلا رعب، بلا مخابرات سياسية وعسكرية وجوية، بلا شبّيحة وجواسيس، بلا سجون ومعتقلات، بلا قيود بلا أغلال.

لقد تعب السوريون وأن لهم أن يرتاحوا أخيراً. تعلموا أن الاستبداد أساس كل شر وأن الحرية أصل كل خير، وعلموا أن الشعب الذي يفقد حريته وكرامته يفقد معهما كل شيء: الدين والدنيا والحياة والاستقلال، فإنهم اليوم لأنشد حرصاً على الحرية والكرامة من حرصهم على الأمان والحياة.

-6-

ليعلم رعاة المؤتمرات وداعاة المفاوضات: يوم ثار الشعب السوري لم تكن مدن ومناطق تحت القصف والحصار ولا كانت في السجون تلك الأعداد الهائلة من المعتقلين، فلا تساوموه على إطلاق المعتقلين ووقف القصف وفك الحصار، فما لهذا كله انتفاض وثار؛ لقد ثار من أجل الحرية والكرامة، فهتف هاتفوه: "حرية للأبد"، وصاحوا فرددت صيحاتهم جنبات الدنيا: "الموت ولا المذلة".

نعم، الحرية والكرامة هما ما يريدون وهم ما يصرّون على الفوز به والحصول عليه ولو طالت ثورتهم مئة عام. إنها كلمة نرسلها إلى القريب والبعيد والعدو والصديق، إلى من منح نفسه حق تقرير مصير سوريا باسم الإسلام ومن يدعوا إلى مؤتمرات التوافق والسلام والاستسلام، وليفسّرها كل واحد كما يشاء: لا تنازعوا الشعب السوري على حريته وكرامته بعد اليوم، لا تحاولوا أن تسلبوا إرادته أو تفرضوا عليه الوصاية. لقدرأيتم غضبة شعب طال حلمه وطال صبره، ليس البركان إذا ثار كالجبل الخامد، اتقوا ثورة البركان.

الزلزال السوري

المصادر: